شاؤول تشرنحوفسكي : بين التمرد والاستسلام

د. عبد الوهاب م. المسيري

تتضح كل تناقضات الفكر الصهيوني في أشعار وكتابات الشاعر شاؤول تشرنحوفسكي الذي ولد في روسيا في ٢٠ أغسطس ١٨٧٥ ، وتعلم العبرية والروسية في طفولته ، وقرأ عديدا من الكتب الادبية العالمية،فمن بين قراءاته نجد قصص جول فيرن واسكندر دوماس والاليـاذة والاوديسة واشعار شللي ، جنبا الى جنب مع التلمود والكتب اليهودية القديمة . ودرس تشرنحوفسكي الطب في هايدلبرج في المانيـا ، حيث تزوج من سيدة روسية مسيحية من أصل ارستقراطي ، تقية ورعة متمسكة بأهداب دينها وتعاليمه . وبعد ذلك رحل تشرنحوفسكي الى سويسرا حيث مارس مهنته ، ومنها هاجر عام ١٩٣١ الى فلسطين ، واستقر فيها حتى حانت منيته عام ١٩٤٣ .

تشرنحوفسكي العلماني المتمرد

تتسم قراءات تشرنحوفسكي ، بل وحياته ، بضرب من الازدواجية العميقة التي تعبر عن نفسها في أدبه ، سواء من ناحية الشكل ام المضمون ، فأدبه أدب يهودي متمرد عـلى اليهودية في الوقت ذاته . فعلى سبيل المثال نجده ينصرف عن الاشكال الادبية العبرية ليقلد الاشكال الادبية الغربية من سوناتـا الى ملحمة الى خمريات انكارونية أغريقية ، بل انه ترجم كثيرا من الاشعـار الغربية الى العبريـة ، وهو مشهور كمترجم شهرته كشاعر . هذا من ناحية الشكـل ، أما من نـاحية المضمون فتمرده يظهر بشكل اجلى وأوضح ، فتشرنحوفسكي من أتبـاع الفيلسوف الصهيوني بريديشفسكي الذي نـادى بتخليص اليهودية من روحانيتها المتطرفة ، ومن تركيزها الزائد على البؤس والشقـاء والاستشهاد ، كما أنه نادى باعلاء قيم اخلاقية نيتشوية ، كـان يعدها البعض غـير يهودية ، مثل الفرح والقوة الجسدية والعدوانية ، وقد حاول تشرنحوفسكي ان يطـرح جانبا القيم اليهودية التقليدية التي تثقل كاهله . ففي قصيدة « اني أعتقد » ، على سبيل المثال ، يتغنى ببعث الانسان اليهودي الجديد ، وبالشعب اليهودي الـذي لا ينوء تحت نير الغيبيات الدينية .

شعبي هو الاخر سيزدهر ، وفوق الارض سيظهر نشء جديد .
سيلقى بالسلاسل التي تغل يديه ، وسيرى النور امام عينيه .
شعب يعيش ويحب ويعمل ويفعل ، يقينا انهم احياء على الارض .
وليس في العالم الاخر — لا يعيشون على الامل في السماء ولا يقرون عينا بالعقيدة الخاوية .

ويلقي تشرنحوفسكي بنفسه في أحضان الطبيعة لينسى يهوديته . والهرب الى الطبيعة له دلالة خاصة بالنسبة لليهود، اذ ان الديانة اليهودية من أكثر الديانات معاداة للطبيعة، فبؤرة الوجدان اليهودي عبر التاريخ كانت دائما وابدا القبيلة والجماعة ، واذا كـانت الشعوب الوثنية تعبد العناصر الطبيعية مثل الشمس والقمر والاشجار ، فقد كان على اليهود ان يؤكدوا استقلالهم عن طريق ابتعادهم كلية عن اي عبادة لتلك العناصر ، وبهذا